(١٤) التماس الوحدة : فى إيران

د. القرضاوى وأسرار رحلته الشهيرة إلى إيران :

- حيثما ارتفعت المآذن أعتبر ذلك وطناً لى.
- الوحدة إيمان والتفرق كفر.
- يجب أن يبقى ما يختلف فيه علماء السنة والشيعة محصوراً عند أهل الاختصاص.
- الغرق فى بحر الجدل حول مسائل فى فروع الفقه خيانة للأمة.
- ليس عند الشيعة مصحف آخر غير ما نعرفه نحن أهل السنة.
- يجب تمثيل أهل السنة كأقلية فى مجالسكم النيابية كما نفعل نحن فى مصر مع الأقباط.
- فتوى الشيخ شلتوت بجواز التعبد بالمذهب الجعفرى تجذب علماء إيران الجعفريين.
- فتوى القرضاوى بزواج المسيار قاسم مشترك فى لقاءاته مع العلماء.
- لا يوجد مصحف آخر لدى الشيعة غير المصحف الذى نعرفه.
- الشيخ تسخيري يؤكد أن مناهج التعليم الإيرانية لم تعد تسب الصحابة بل تمجدهم.

obeikandl.com

(١٤) التماس الوحدة : فى إيران

فى إيران تؤثر جغرافيا المكان فى شخصية الدولة عبر تاريخ طويل، فإذا كانت إيران هضبة ممتدة الأطراف فى كل منطقة فيها جبل وهضبة ووديان، فإن كل إقليم فيها له طبيعة فكرية خاصة فيه شيخ هو إمام الجمعة، وله فهم وطبيعة نفسية، ويكاد ترامي الأطراف واختلاف الجغرافيا وتبدل المناخ يكون ذا أثر حقيقى فى فسيفساء الفكر والسياسة فى الدولة التى شدت الأنظار إليها، خاصةً فى عصر المثقف الرئيس د. محمد خاتمي.

منذ بدء الانفتاح بين الدولة الخاتمية، وإنشاء رابطة الثقافة الإسلامية، ونشاط المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، والدعوات تتوالى على د. القرضاوى لزيارة إيران، لكنه يؤخر ذلك، حتى كانت التلبية لأول مرة لهذه الزيارة فى يونيه ١٩٩٨م.. الزيارة غير عادية، ليست كزيارات الفقيه المعاصر لأى دولة أو لحضور أى ندوة، بل تمثل حدثاً هامًّا فى الشأن الإسلامى المعاصر : رغم أن الشيخ محمد الغزالى رحمه الله زار إيران من قبل وخطب الجمعة هناك، لكن فعالية زيارة القرضاوى تأتى فى ثوب ووقت آخرين.. رافقت د. القرضاوى بصورة شبه رسمية حيث انطلقت الرحلة من الدوحة واستمرت أكثر من عشرة أيام، لأكون الشاهد الوحيد على هذا الحدث التاريخى وأؤرخ له :

كان الداعى هو المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية، وهو امتداد لفكر التقريب الذى دعا له إمام شيعى المذهب هو تقى الدين القمنى من قلب القاهرة فى بدايات القرن العشرين، وأيده علماء الأزهر وأبرزهم الشيخ شلتوت شيخ الأزهر الذى أقاموا له احتفالاً فى طهران فى شوال الماضى.

فى مطار طهران تمتلئ قاعة كبار الزوار بممثلين لكثير من المؤسسات الرسمية والشعبية لاستقبال د. القرضاوى على رأسهم سماحة العلامة الشيخ محمد وأعظ زادة الخراسانى الأمين العام للمجمع العالمى للتقريب.. لكن فندق (آزادى) لم يترك دقائق للشيخ حتى يستريح : سفراء وعلماء ومفكرون.. ينتظرون لقاء الرجل، حتى امتلأ الصالون، بالزوار وباقات الزهور.

بدأت كلمات الوحدة تنساب فى مجلس يجمع د. القرضاوى بعلماء الشيعة: حيثما ارتفعت المآذن أعتبر ذلك وطناً لى، وحدة الأمة فريضة لازمة، وضرورة حاسمة، لكن المنطلق الفكرى الذى سعى لتأصيله بين اتجاهين مشحونين بتاريخ من الصراع الفكرى

والدموي كان القاعدة التى نسبت خطأ للإمام حسن البنا، وهى قاعدة لمدرسة المنار: الشيخ رشيد رضا تلميذ الإمام محمد عبده مفتى الديار المصرية فى بداية القرن العشرين، وهى [فلنتعاون فيما اتفقنا عليه، وليعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه]، وهى قاعدة فكرية عظيمة تكفل لأبناء الأمة الواحدة القدرة على التماسك والحفاظ على أسباب الوحدة الإسلامية التى توجبها فرائض وضرورات عدة فى هذا العصر.

محاربة الإلحاد قاسم مشترك

فى سعيه لما يمكن أن يتفق عليه مع علماء الشيعة كان د. عبد الكريم بى آذار الشيرازى رئيس جامعة المذاهب الإسلامية بطهران حاضراً، بمشاركة سماحة الشيخ إسحاق مدنى مستشار رئيس الجمهورية لشؤون أهل السنة؛ قال د. القرضاوى: "محاربة الإلحاد والانحلال والظلم والاستكبار، ومقاومة تخنث الرجال، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ومحاربة إسرائيل، والوقوف مع قضية فلسطين قضية المسلمين الأولى، ونصرة المستضعفين فى كل مكان.. أمور نتفق عليها فلنتعاون فيها.. أما ما نختلف فيه فهو أمور جزئية يعذر بعضنا بعضاً فيها؛ فمن اجتهد فأخطأ فله أجر وهو مأجور فيه؛ معذور ومأجور".

فى لقاء العالم الشيعى المعروف آية الله محمد على تسخيرى رئيس رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية بوزارة الإرشاد والثقافة فى إيران، رحَّب بالشيخ د.القرضاوى قائلاً: " أنتم ذخر للأمة الإسلامية، قمة بذلت حياتها لجميع الأمة، ولم تشاركوا فى اختلافها، بل كان لكم دو مشهود فى وقف الحرب العراقية الإيرانية".

يعرف الشيخ تسخيرى بأنه العالم السنى فى إيران، رغم أنه شيعي المذهب فإنه يقدر أهل السنة ويعد قريباً منهم، ففى كل المؤتمرات الإسلامية العالمية يمثل الشيخ تسخيرى إيران فيعرف علماء المسلمين فى كل مكان.. وتعود صلته بالشيخ القرضاوى إلى نحو عقدين من الزمان.. يصفه القرضاوى قائلاً: " العلامة الفقيه، عرفت فيه العالم العامل المخلص، الداعية إلى الله، يتميز بسعة علمه وحسن خلقه وسماحة وجهه".

مبادئ التقريب

فى هذا اللقاء وضع القرضاوى مبادئ التقريب بين المذاهب؛ فنظَّر لها قائلاً: " إن رب هذه الأمة واحد، وكتابها واحد، ونبيها واحد، وقبلتها واحدة، وشعائرها واحدة، وشريعتها واحدة، وآدابها ومصيرها وعدوها واحد، وقد أمر الله تعالى بالاتحاد والائتلاف،

ونهى عن التفرق والاختلاف فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ونبّه سبحانه المسلمين على ما يوحد كلمتهم ويجمع صفهم، وهو الاشتغال بالدعوة والأمر والنهى قائلا: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وحذرهم من الوقوع فيما أهلك الأمم من قبلهم فقال: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وأضاف قائلاً: كما أمر رسول الله ﷺ بالاتحادى والترابط والتراحم والتعاضد فيما بين بعضهم وبعض، كما فى الحديث المتفق عليه: " المؤمن للمؤمن كالبنيانِ يشدُّ بعضُهُ بعضاً، وشبَّك أصابعه وقال: " المسلمُ أخو المسلمِ لا يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُهُ ".

وهناك الأحاديث التى حثَّت على الارتباط بالجماعة، وأن يد الله مع الجماعة، ومن شذَّ: شذَّ فى النار، وأن الذئب إنما يأكل من النغم الشاردة .. وكل هذه النصوص تؤكد أن وحدة الأمة فريضة لازمة، كما أنها ضرورة حاسمة، فهى فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع، خاصةً فى عصرنا هذا.

حديث الفرقة فيه نظر

وتعرض د. القرضاوى لحديث اشتُهر فى كتب السنة وكتب العقائد وكتب الفِرق، وقال: إن الناس اعتقدوا أنه حديث ثابت لا مطعن فيه لشيوعه وشهرته مع أن الشهرة لا تلزم الثبوت والصحة: ذلك هو حديث افتراق الأمة إلى فرق بين السبعين، كلها فى النار إلا واحدة، وهو حديث يوحى ظاهره بأن الفرقة أبدية فى الأمة، وأنها قدر مكتوب عليها لا فكاك منه، داعياً إلى بحث هذا الحديث بموضوعية وحياد من ناحية ثبوته، ومن ناحية دلالته إن ثبت.. وذكر أنه قام بهذا البحث بالفعل، حيث ذكر رواة الحديث وقال: إن التقوية بكثرة الطرق ليست على إطلاقها، فكم من حديث له طرق عدة ضعفه العلماء، وخصوصاً المتقدمين، كما يبدو ذلك فى كتب التخريج، والعلل، وغيرها، وإنما قد يؤخذ بها فيما لا

معرض له ولا إشكال فى معناه. وقرر بوجود إشكال فى ذلك، فى الحكم بأن التفرق قدر حتمى مكتوب على الأمة لا فكاك لها منه.

وكذلك الحكم بافتراق الأمة أكثر مما افترق اليهود والنصارى من قبل، وبأن هذه الفرق كلها فى النار إلا واحدة منها، وهو يفتح باباً لأن تدعى كل فرقة أنها الناجية وأن غيرها هو الهالك، وفى هذا ما فيه من تمزيق للأمة.

وطعن العلامة ابن الوزير فى الحديث عامة، وفى هذه الزيادة خاصةً " كلها هالكة إلا واحدة " لما تؤدى إليه من تضليل الأمة بعضها لبعض، بل تكفيرها بعضها لبعض.. وقال : على أن الحديث — وإن حسَّنة بعض العلماء كالحافظ ابن حجر أو صححه بعضهم كشيخ الإسلام ابن تيمية بتعدد طرقه — لا يدل على أن هذا الافتراق بتلك الصورة وهذا العدد أمر مؤبد ودائم إلى أن تقوم الساعة، ويكفى لصدق الحديث أن يوجد هذا فى وقت من الأوقات، قد توجد بعض هذه الفرق، ثم يغلب الحق باطلها فتقرض ولا تعود أبداً، وهذا ما حدث بالفعل لكثير من الفرق المنحرفة، فقد هلك بعضها ولم يعد لها وجود.

الانشغال بالهموم مدعاة للاجتماع

وفى حواره مع علماء الشيعة فى طهران أكد د. القرضاوى على أن انشغال المسلم بهموم أمته يعد من المبادئ الأساسية للتقريب؛ فمما يوقع الناس فى حفرة الاختلاف وينأى بهم عن الاجتماع والائتلاف : فراغ نفوسهم من الهموم الكبيرة والآمال العظيمة والأحلام الواسعة، وقال : لا يجمع الناس شيء كما تجمعهم الهموم والمصائب الكبيرة والوقوف فى وجه عدو مشترك.

واعتبر — فى السياق نفسه — أنه من الخيانة لأمتنا اليوم أن نغرقها فى بحر من الجدل حول مسائل فى فروع الفقه أو على هامش العقيدة، اختلف فيها السابقون وتنازع فيها اللاحقون، ولا أمل فى أن يتفق عليها المعاصرون؛ فى حين ننسى مشكلات الأمة ومآسيها ومصائبها التى ربما كنا سبباً أو جزءاً من السبب فى وقوعها.

وعدَّد من هموم الأمة: التخلف العلمى التكنولوجى والحضارى، وهمُّ النظام الاجتماعى والاقتصادى، وهمُّ الاستبداد والتسلط السياسى، وهَمُّ التغريب والغزو الفكرى والثقافى، وهمُّ العدوان والاغتصاب الصهيونى، وهمُّ التجزئة والتمزق العربى والإسلامى، وهَمُّ التسيب والانحلال الخلقى، وهى هموم بلا ريب كبيرة وثقيلة، ونحتاج لمعالجتها إلى

تكاتف العقول لتفكر، والعزائم لتصم، والأيدى لتنفذ وتستغرق من الجهود والأوقات والأموال الكثير والكثير.

المصحف هناك هو المصحف هنا

لكن د. القرضاوى لا يفوته مس مواطن القلق من علاقة أهل السنة بالشيعة؛ فقد ذكر فى أكثر من مناسبة أن القول بوجود قرآن آخر غير القرآن الذى يعرفه المسلمون، لدى الشيعة قول مجرد من الحقيقة، بل إن قراءة القرآن فى إيران فى افتتاح أى مناسبة تتم بأصوات القُرَّاء المصريين المعروفين مثل الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، والمنشاوى، والحصرى، كما أن المصاحف تكتب بقراءة حفص عن عاصم.. بدورى مددت يدى فى أكثر من مكان لأقرأ فى أى مصحف يمكن أن يخفيه عنى أهل إيران، فلم تقع يدى الفعل إلا على القرآن الذى نعرفه جميعاً نحن أهل السنة. وقد داعب د. القرضاوى علماء الشيعة كثيراً حين ذكر لهم هذه الحقيقة.

الإمامة وسب الصحابة

لكن دعوى وجود مصحف آخر لدى الشيعة ليست هى الدعوى الوحيدة التى تؤسس للقلق – أو العداء – بين الشيعة والسنة، فهناك القضية الهامة وهى الإمامة، وقد دفع د. القرضاوى مراراً بالقول بأن غالب أهل السنة يؤمن بالمهدى المنتظر.. وقال : فقط يأتى ونحن نؤيده؛ بيد أن قضية سب الشيعة لصحابة رسول الله ﷺ كانت من الدعاوى التى هاجم بها بعض أهل الاتجاهات الفكرة الإسلامية زيارتنا إلى إيران؛ وقالوا : كيف تضعون أيديكم فى أيدى من يسب الصحابة ؟ بيد أن الشيخ محمد على تسخيرى رئيس رابطة الثقافة الإسلامية فى إيران (رغم أنه أقرب إلى المحافظين منه إلى الإصلاحيين) أكد لنا فى هذه الزيارة أن هذه الدعاوى قد اختفت تماماً فى المناهج التربوية الجديدة، بل وضعت مواقف تاريخية مجيدة لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وأكد تسخيرى على اهتمام إيران الإسلامية بأن تلقن لأبنائها هذه الصورة الجديدة للصحابة، بدلاً من الكراهية التى كانت موجودة.

مشكلة جامع أهل السنة

أما أهل السنة فى إيران فقد اهتم د. القرضاوى بهم : ففى طهران كما هو معروف لا يوجد سوى جامع واحد لأداء فريضة الجمعة، وهو فى جامعة طهران، ولا يوجد لأهل السنة جامع واحد يؤدون فيه صلاة الجمعة التى ربما يجدون بديلاً -٠ فى ظل هذه المعاناة –

فى مدرسة من مدارس للسفارات الدول الإسلامية، وفى لقاء جمعنا مع عدد من سفراء الدول الإسلامية عبروا عن رغبتهم فى وجود مسجد لهم.

فى لقاءاتنا مع بعض المسؤولين الإيرانيين عبر د. القرضاوى عن هذا المطلب وأعاده فى ندوة القدس التى أقيمت بالدوحة فى أكتوبر من العام الماضى مجدداً.. كما طالب فضيلته بتمثيل الأقليات داخل إيران فى المجالس النيابية، وعنى خاصةً بضرورة تمثيل أهل السنة الأقلية فى تلك المجالس، بل وطالب بأن يكون هناك وزراء منهم.. وقال : نحن فى مصر لدينا الأقباط أقلية لكن هناك من يمثلهم، وهناك وزراء منهم فى المجلس النيابى ؛ فلماذا لا تفعلون فى إيران مع أهل السنة ما نفعله نحن فى مصر مع الأقباط ؟ والسنة والشيعة مواطنون كما أن المسلمين والأقباط فى مصر مواطنون.

الشمال الممتنع

بيد أن ضيق الوقت منع فرصة السفر إلى مناطق أهل السنة فى شمال إيران، ورغم عشق د. القرضاوى للجمال – وعشقى أيضاً – وحكايات الجمال فى شمال إيران ساحرة، فإن السفر إلى هناك لمسافة ١٣٠ كم يستغرق أكثر من خمس ساعات بالسيارة، وهو ما لا يتحمله د. القرضاوى، ورغم عرض الرئيس الأسبق رفسنجانى بتوفير طائرة خاصة للرحلة، فإن الجميع أكّد أن جمال الرحلة لا يتم إلا بالسيارة، وخروجاً من هذا الموقف جاء وفد من علماء السنة إلى طهران، وكان لقاء طيباً مع د. القرضاوى، تحدثوا عما فى نفوسهم وحملوا إليه كل الود والتقدير من أهل شمال إيران، وتطرق الحديث إلى عدد من القضايا العلمية، واعتبروا هذه الزيارة لإيران دعماً لهم وسنداً ومعيناً يقوى من ظهورهم، فهم قلة على كل حال وسط أهل المذهب الجعفرى.

إيران خاتمى: الأمر مختلف

لكن الذى يجب ذكره هو الاعتراف بأن إيران فى عصر المفكر الرئيس – كما أطلق عليه – د. محمد خاتمى تختلف عن إيران قبله، فقد عيَّن الرئيس خاتمى ثلاثة من علماء أهل السنة مستشارين له ؛ منهم الشيخ إسحاق مدني الذى كان معنا دائماً ومنصبه : مستشار رئيس الجمهورية لشؤون أهل السنة، والشيخ (شيخ إسلامى) وهو سنى كردى، وشيخ آخر شافعى المذهب.

لقد قرَّر د. القرضاوى هذه الخطوة للرئيس الإيرانى الذى التقى به لقاءً فكرياً استمر أكثر من ساعة – سوف نرصده فى الحلقة القادمة إن شاء الله -، وهو أمر يجب أن نشجع التوجه الإيرانى نحوه، حيث مضى زمن طويل لم يستطع أهل السنة فى إيران أن يرفعوا رؤوسهم، بل تعرض عدد منهم – خاصةً العلماء – للاغتيال على أيدى المتطرفين من الشيعة.. وهو أمر استهجنه علماء الشيعة أنفسهم خاصةً حين حملت الأنباء مقتل إمام سنى فى الساعات الأولى من وصولنا إلى طهران.

فتوى الشيخ شلتوت

وإذا كان الشيعة فى إيران يعتزون كثيراً بالأزهر الشريف فى مصر، فإن اعتزازهم الأكبر يأتى منطلقاً من فتوى الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر، الذى أفتى فى ١٧ ربيع الأول عام ١٣٧٨م قائلاً : إن الإسلام لا يوجب على أحد من أتباعه أتباع مذهب معين بل نقول : إن لكل مسلم الحق فى أن يقلد بادئ ذى بدء أى مذهب من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحاً، والمدونة أحكامها فى كتبها الخاصة، ولمن قلَّد مذهباً من المذاهب أن ينتقل إلى غيره – أى مذهب كان – ولا حرج عليه فى شيء من ذلك.. إن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنة، فينبغى للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى، يجوز لمن ليس أهلاً للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه فى فقههم، ولا فرق فى ذلك بين العبادات والمعاملات.

مجلة رسالة الإسلام

هذا وقد حرصت إيران فى الفترة الأخيرة على تحسين هذه الصورة حول علاقاتها بالمذاهب الأخرى خاصةً مع أهل السنة، وكان من ذلك إحياؤها لمجلة رسالة الإسلام والتى صدر العدد الأول منها فى يناير ١٩٤٩م من دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة، واستمر إصدارها حتى أكتوبر ١٩٧٢م، ثم أحيت وأعادت إصدار المجلة ويترأسها الآن د. محمد على آذر شب أستاذ الأدب العربى بجامعة طهران ومستشار إيران الثقافى حالياً فى دمشق وهى تصدر عن المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية الذى يضم فى مجلسه الأعلى علماء من مختلف المذاهب الإسلامية، وقد حددت أهدافه بالسعى فى سبيل تحقيق تعارف وتفاهم أكثر بين العلماء والمفكرين والقادة الدينيين للعالم الإسلامى فى المجالات

العقائدية والفقهية والاجتماعية والسياسية، ولاسعى لإيجاد تنسيق وتشكيل جبهة واحدة أمام التآمر الإعلامى والهجوم الثقافى لأعداء الإسلام، والعمل على إشاعة فكر (التقريب) بين الجماهير الإسلامية.

المسيار يشعل الحوار

ومع شيوع ما يسمى بالزواج المؤقت (أو ما نعرفه نحن بزواج المتعة) فى إيران، فإن فتوى د. القرضاوى المعروفة بجواز زواج المسيار كانت القاسم المشترك فى الرحلة كلها، إذ كانت رغبة العلماء الشيعة كبيرة فى سماع أوجه الفتوى من صاحبها، خاصةً أن التقدير الكبير الذى حظى به القرضاوى هناك تمثل فى تقديم د. القرضاوى من قبل كبار العلماء هناك ليؤهم فى الصلاة، وقد داعبهم القرضاوى فوضع على سجادة الصلاة (ورقة منديل) قائلاً : إنكم لا تصلون على ما يلبس ويؤكل، وأنا أصلى على كل طاهر، لكنى لأضع هذا المنديل حتى تصح صلاتى على مذهبكم، ولا تعيدون الصلاة، وحتى لا يقول أحد: إنكم تصلون ورائى (تقية).

لكنهم أكدوا جميعاً بصحة صلاتهم خلف إمامهم الذين سألوه فى كل قضايا العالم الإسلامى، وكان بعضهم يتعجب من أن رأيه فى القضايا السياسية ورفضه الاستكبار الأمريكى وتأييده لإسرائيل هو رأيهم ! فكانوا يعلقون : لسنا وحدنا نغنى خارج السرب إذاً!.